

عقود ابن سينا

قصة بقلم فاروق هورسيد

كما تامله هي الآن ، انه سير - ولا شك - محفوفاً بمئات ومئات من الفتيات الجميلات بل لعلهم سيعينونه في عامهم هذا استاذاً بالكلية بعد ان يحصل على الليسانس ، فاستاذته يعرفون انه عقري ويستشيرونه في اشياء كثيرة ويجون ان يجلس معهم في حجراتهم ويسير هو معهم في ابهاء الكلية ، وحينئذ تكون (بئنة) من بين هؤلاء اللواتي يلتفتن حوله سائلات :

- استاذ عدنان ، هل السريالية حقاً صورة من صور الرومانسية ؟ وسيجيب كلا ، ويبدأ في مهاجمة هذه النظرية البهلاء التي تقول ان السريالية رومانسية في اضعف صورها ، انه لا يكاد يطبق ان يسمع هذا اللغو الفارغ . ان السريالية اعظم مراتب الفن ، ولا ادل على هذا من انه كرس حياته حتى الآن دارساً لها ... ولكن كل ما في الامر ان هذه دسيسة مفرضة دبرها اعداؤه ليتالوا منه ... ولكنه سيرد على هذا الكلام الفارغ ويهاجم هؤلاء الجلهة في عنف ...

ويتلقت المصورون صوراً له ويعقبون عليها بالمقالات الرائعة ، وينشرون له الاحاديث مقرونة بصوره ، وستقرأ (بئنة) هذا كله ، ويمتلئ قلبها حقداً كهذا الحقد الذي يملأ قلبه ، وتثور في نفسها ضغينة كتملك التي تثور في نفسه كلما رآها سائرة مع هذا النبي الاسمر الذي لا يعرف شيئاً في السريالية وليس الاوّل بامتياز مثله ...

ولكنه سيتنازل ويذهب اليها فتجري اليه وتترامي بين ذراعيه ، وتضع رأسها فوق صدره المريض ثم تبكي ... فيهدد كنفها في رفق ويقبل رأسها في عطف ثم يضم جسدها اليه في حنان ويسير في تودة ورزانة ، وسيكون مرتدياً ثوباً جامعيّاً اسود مزيناً بالشريط الاخضر عند حافتيه وكل هؤلاء الطلبة والطالبات يتطلعون اليه في دهشة واعجاب حاسدين هذه الفتاة التي اضاءت له طريق العبقريه والمجد ، ويزججه من طريقه ثم يمضي خطوة خطوة وقد اغنى كتفاه قليلاً وبده تعبت باحدى المدايات المعلقة في شريط فوق صدره ، ويسير خطوة ، خطوة ...

ووقف بغتة ، فقد سمع قدماً تعطل تسير وراه خطوة خطوة ... ان اشد ما يجيره انه يسمع هذه الخطوات دون ان يعرف صاحبها فكما التفت وراه وجد وجهاً جديداً يترقبه ويحس عليه حركاته وسكناته ، وكانت تعابير هذه الوجوه تختلف فهي حيناً الدهشة وحيناً المعرفة ، وفي اغلب الاحيان تكسني ثوب الدهول وعدم الاكتراث وأحس بالخوف بتمشي وئيداً الى قلبه فيبعث فيه برودة كبرودة الموت مع ما يحسه بجلقه من جفاف وما يستشعره فوق وجهه من حبات متكاثفة من العرق ..

وذكر ذلك اليوم الذي اعلان فيه انه سيلقي محاضرة عن السريالية في مدرج (ابن خلدون) وذكر كيف تكاثرت عليه الطلبة يسألونه عن موضوع المحاضرة ، كم كان وقوراً في اجابته ، متواضعاً في حديثه ، وعندما ذهب الى المدرج في آخر اليوم الدراسي وجدته خالياً الا من ثلاثة كان يعرف انهم لا يهابون بطش البوليس ولا يخشون شيئاً .. اما الباقي فلم يجد منهم احداً .. لا شك ان البوليس قد سبقه فأخرج الطلبة من القاعة ولا بد انهم قاموه ليمسوا عدنان ولكنه طردمهم وهم لم يبق إلا هؤلاء الثلاثة العتاة .. الأول ذلك الأمرد زير النساء الذي لا يكف عن الحديث عن مغامراته

كان حز الظهيرة يذيب كل شيء حوله ، واخذت طبقة (الأسفلت) التي كست الطريق تحت قدميه تنن تحت ثقل الشمس الملتبته ، وتخرج هذه الانات لفحات نارية تحرق قدميه رغم الحذاء السميك الذي يلبسه ...

وكان يسير وحيداً ، وحيداً كاعنف ما تكون الوحدة ، لا يجوطه الا ذلك الليب المرعب ، لبيب القاهرة في الساعة الواحدة ... وكان شارع المدارس على اكتظاظه بهذا الحشد الضخم من البذل الانيقة والفساتين الزاهية يوحى بالفراغ والوحدة ..

ورفع رأسه الثقيل من اطرافه الدائمة وامتدت يده تعبت بشاربه المدلل في همود . وكان في عينه بريق الحذر ، واكسحت عيناه الشارع في نظرة خاطفة ، لقد رآه مرة ثالثة وهو لا شك يتعقبه ، واسرع في خطواته وأحس بالآخر يلاحقه ، واشتد وجيب قلبه وارتفع صوت خفقاته حتى ليسمعها مع وقع قدميه على الطريق ، وعاد يتلفت وراه من جديد ، وابتدأت حبات العرق تنعقد فوق جبينه الملتب وأحس بتقلص في شفتيه ..

وحاول ان ينفي ذلك الخاطر الخبيث عن ذهنه ولكنه اخفق ، وعاد يسمع وقع خطوات ذلك الذي يتبعه ، وكان يستطيع ان يميز صوت قدميه من كل ضجة الطريق فهو يعطل بقدمه اليسرى ، او لعلها اليمنى .. على اي حال هو يعطل باحدى قدميه ، ولا شك انه يستطيع تمييز صوتها من صوت اقدام الناس اجمين .. وكيف لا وهو يسمعه كل يوم فإ يكاد يقادر منزله في الصباح حتى يتبعه وكأنه قضى ليلة يراقب نور حجراته ، ولا بد انه يفعل .. وما يكاد يترك مدرجات الكلية حتى يحس به وراه ، بل انه يسمع وقع قدميه في انحاء الكلية حين يترك مدرجاً ليدخل آخر ..

انه انسان منته ، وهو يحس هذا منذ بدأ البوليس يتعقب خطواته ، وهو يعذر البوليس في هذا ، فهو ولا شك انسان خطر ، خطر تماماً على الناس جميعاً ، وهم ولا شك يعرفون خطورته ، بل ان (بئنة) تعرف ايضاً انه خطر ، وتعرف ان خطورته وليدة عقله الجبار الذي لا يهدأ ولا يستقر ، ذلك العقل الذي استوعب مائتين واربعين كتاباً وعلماً لثلاثمائة فهو لا يذكر تماماً ، وكل هذه الكتب تتحدث عن شيء واحد وهو (السريالية) ، وليس هذا عليه بجيب ، فهو عقري وهو فوق عقريته فيلسوف .. وعاد يسمع الخطوات التي تعطل من جديد ...

ألا خلاص له من هذه الرقابة الدائمة ، في الطريق وفي الكلية .. في النهار وفي الليل ، حتى ليسمع هذه الخطوات في نومه تروح توقع نغماتها الرتيبة مع تنفسه المضطرب فيستيقظ مرعوباً وقد احس انه يخنق ..؟

كلا ، لا خلاص .. انه رجل منته ، ولا فائدة إلا اذا ترك تفكيره وفلسفته ، ولكن ايكنه حقاً ان يتركها ، كيف بالله ... ونظرياته العظيمة التي سيفير بها من وجه العالم ، وافكاره العبقريه التي ستدفع به الى القمة حتى لمعرف كل انسان اسمه وتصبح اراؤه وافكاره في كل كتاب وفوق كل لسان ...

عدنان يقابل رئيس الجمهورية ، عدنان يستقبل الرئيس ترومان ، الهند تكرم عدنان ، عدنان يقابل ريتا هيوارث !

نعم ... وستغار (بئنة) وتعرف حينئذ انه عقري ، ولكنه سيعاملها

الناجحة وصولاته الرائعة ، لا واحدة تستطيع ان تقاوم اغراءه ..
والثاني ذلك الاديب البارد الطبع الذي لا يعبأ بشيء ولا يهتم لأمر بل
يرقب كل شيء بهدوء وبرود وابتسامته على شفثيه ..

والثالث ذلك الانسان القصير ذو الوجه الاحمر والرأس الابيض الذي قبض
عليه البوليس ثلاث مرات وسجنه مرة لأنه متطرف في مذهبه ، وهو مع هذا
لا يهتم الا بنشر مبادئه التي يؤمن بها ايماناً كاملاً .

هؤلاء الثلاثة - وثلاثتهم اصداقوا - يعجبون به ويعبونه ويتمنون ان
يكونوا مثله ، اما هو فلا يرضى ان يكون شيئاً سوى عدنان .. وكم
يطمع الكثيرون في ان يكونوا مثله ..

واحتواه ميدان الجزيرة بضجيجيه وصيلل الترام واصوات الابواق المحذرة
وصياح الباعة وشجار الناس . ورفع يده يرد تحية القاها اليه طالب يذكر انه
رآه مرة او ربما اكثر ، واحس زاحة تملأ نفسه فقد كان الطالب يحييه
في احترام شديد وادب بالغ ... وعادت يده تعبت بشاربه الطويل المدلى
بجوارفه وهو يترك الجزيرة ويبعد عن ضوضائه رويداً رويداً ...

كان يحس راحة وهدوءه .. ليفعل البوليس ما يشاء وليطلق كل رجلاه
وراهه وليراقبه في كل شيء فهو لن يهتم لأنه سينتصر وسيأتي ذلك اليوم الذي
يستطيع ان يضرب فيه ذلك الجندي الوقح الذي اهانته يوماً منذ عام ..
انه ليذكر هذه الحادثة ولا يكاد يستطيع نسيانها ...

كان يسير ذات مساء على حافة النيل ، ذلك الطريق المظلم الذي يبدأ من
نهاية كبرى قصر النيل ويتسلل خلف حديقة الاندلس ثم ينساب ضيقاً مظلاً
مملوء بالاشجار العالية ، واستهواه منظر القمر في السماء الصافية يتسلل من
بين الفروع المتباعدة عند قم الاشجار وصوت الموسيقى الحاملة ينبعث من
الحديقة الى جواره .. وظل يتقدم في الطريق الى ان وجد صخرة على
حافته .. وجلس ، تلك الجلسة التي يجها دائماً ، وحيداً الا من القمر والماء
وتأملاته ، جلسة الشعراء والفلاسفة .. وعلى حين فجأة سمع صوتاً اجش
يعظم السكون حوله :

- يا افندي ، ماذا تفعل هنا ؟

ما كان لأحد ان يقطع خلوة فيلسوف او شاعر وإلا ثار وحطم الدنيا ،
ونظر وراه قرأى شعباً قريباً يبين في الظلام هيكله الضخم وفي يده عصا
ضخمة ... ولم يرد وانما عاد الى تأملاته من جديد .. وعاد الصوت الاجش
يصيح من جديد :

- يا افندي ، الا تسمعي ... قم من هنا .

وانتقدت حبات العرق على جبينه برغم الهواء الندي الذي كان يلبس
وجناته ، وتحول اليه ليقول في صوت هاهس :

- لم ... ؟

وازداد الصوت خشونة وقحة وبدت فيه نبرة هازئة :

- يا افندي ممنوع ... ممنوع ... افهم .

وازدرد ريقه وقد شعر بجفاف في حلقه ومرارة تملأ نفسه :

- ممنوع الم ؟

وكان صوته غريباً عنه ، كان متخاذلاً ضعيفاً واهناً .

- نقول ممنوع وهذا يعني ممنوع ... انا الغفير ...

واحس في كلماته الاخيرة رنة الفخر والزهو ... وملاء شعور بالسخط ،
خفير ، يا المهزلة ، خفير يكلمه بهذه الهمجة المتعالية الوقحة ولا يتورع ان
يقول بلاء فيه ... انا الغفير ...! الظاهر انه لا يعلم حقيقة شخصيته ! وقام
من مكانه متثاقلاً ، وتحول الى الخفير يفهمه من يكون ...

وغلت شفثيه ابتسامه مرة ، وكان دائماً يستنمر نوعاً من المرارة والهوان
كلها تذكر هذه الحادثة ، لقد كان غيباً لاشك حيناً حاول ان يجادل هذا
الخفير الابله ، انه لاشيء فكيف جادله بالله ... ولكنه يذكر جيداً كيف
ظل هذا الحيوان يدفمه في عنف ، وفه لا ينفك يرسل سباباً عنيفا وقحا
ما سمعه في حياته من قبل ...

ووقف عدنان فجأة وعبرت الطريق سيارة مسرعة وعاد يتحرق الشارع
ثم انفرج قليلاً ليسير في الطريق الساكن الهادىء الا من صياح الصبية
الصفار وصيلل الترامات يأتي متثاقلاً من بعيد ... وامتلأت رثناه بذلك العبير
الحبيب المميز الذي ينبعث من بعض الحداثق المهمة للفنازل الصغيرة الى يساره
مختلطة برائحة الحقل الاليفة الى يمينه وانبعث في نفسه احساس مبهم لا يكاد
يدركه ، احساس بالمرارة التي تسيطر على كيانه وتغلغل حتى اعماق نفسه
فتمترج مع هذه الرائحة التي تملأ رثنيه وتجعل الدنيا امامه سجننا كبيراً ...
وهل هو إلا سجين !

انه لا يكاد يلقى حوله انساناً واحداً يفهم عنه ما يقول او يسمع واعياً
ما يتفوه به ..

انه ليحنق على نفسه وعلى العالم ان يضطر الى تضييع هذا الزمن الطويل
من عمره مخاطباً هؤلاء البلهاء الذين يرامولونه في المدرج بالكايه او متحدثاً الى
هوام البشر الذين قذفت صروف الدهر بهم الى طريقه ..

وامتلاً صدره بضيق مبهم المصدر حيناً تذكر انه سياتي بعد قليل (مدام
استر) صاحبة المنزل الذي يقيم فيه نحوته بعنايتها وكأنه طفل مدلل وتلقي
اليه ببساتها الصاخبة .. تلك البسات التي تنطق بالألوان وتتنوع بعبير
المرأة النائرة ...

وهو يذكر جيداً ذلك المساء الذي جلس فيه يتأمل ضوء القمر من
شرفة حجرته ، تلك الشرفة الضيقة الحبيسة مثله تماماً ، وكان يفكر في (بثينة)
ويذكر توابها الحبيب فوق الصخور الصغيرة هناك اسفل الهرم الاكبر ،
وقد انبعث ثمة لحن راقص من (جراموفون) اثنى به احد الطلبة بنينا
انتشر باقي الموكب هنا وهناك ، وجلس هو وحيداً يرقب حركاتها الرقيقة
وعبثها البريء وهي لا تكاد تعرف انه يراها ويرقبها ..

واختفت (بثينة) من امامه واختفى الهرم وانقطع اللحن الراقص وما
عاد يرى الا الشعاع الباهت يتسلل خجلاً الى شرفته البائسة عندما سمع وقع
اقدم تقترب من حجرته واحس بأنسان يلج الحجره ، وكان يعرف سلفاً
انها هي ، فلم يتحرك ، فقد دأبت منذ ليال على الحضور اليه عندما تلتق الباب
خلف آخر من يدخل من سكان بيتها الصغير .. وكان يحس دائماً ضيقاً
يملك نفسه عندما تدخل حجرته .. ولكنه يعرف انه كان يسر في دخيلة
نفسه حين يسمع وقع خطواتها اللعينة فوق ارض حجرته ، كان ينبعث في قلبه
احساس عجب بنشوة غامرة تطوف بصدوره ..

وعندما احس بانفاسها تلتب هناك عند اذنه التفت اليها، ولهت ، فقد كانت
لاصقة به تماماً ، وكان جسدها كله يرتجف ، فضمها اليه دون ان يمي وألصق
شفثيه الباردتين بشفثيتها ، وأحس بشفثي المرأة تحرقان وجهه كله فتحلص منها
واسرع يجري الى حجره صديقه «صيا» يطرق الباب وكأن الجن تتعقبه ..
ولم ين ليلته تلك فقد ظلت صورة (بثينة) تبدوله عاتبة لائمة تنظر في ألم
الى شفثيه .. كما ظل وجهه كله يلهب ويحترق .. وفي الصباح ظل يلقي بالماء
فوق وجهه الى ان كلت يدها ..

ومنذ تلك الليلة المشؤومة لم ينم .. كانت الحروف تتراقص امام عينيه حين
يقرأ ، تذوب وتحترق وكأنما قبعتها مدام استر الازمة النائرة ... فيجفل



ويتندى جبينه بالعرق السخين ، وسرعان ما يتقلط به دمع بارد ينساب رغم ارادته متخللاً اخايد وجهه الشاحب عندما يذكر (بيئته) ..

وانقطع وقع قدميه على الطريق ، وولج باب المنزل فأحس ان الاقدام التي تمظل قد كفت هي الاخرى عن الحركة ، وعندما التفت وراه رأى رجلًا هناك ، يقف عند حافة الطريق يشمل سيجارته وكانت حركاته المريبة تنطق ببيئته ...

وهناك في الحقل المقابل وقف ذلك الرجل المنكر في ثوب الفلاح يمتد بحسده على فأسه يرقب حركاته ، وبائع الخيار الذي توقف عند الشجرة الكبيرة وقد رفع قدمه يريحها فوق ذراع العربة الصغيرة . انه يتطاع اليه ثم يلتفت ناحية ويطلق عقيرته مناديا على سلعته ..

انه يعرف تماماً انهم يضيقون عليه الخناق .. وهذا الرجل ذو الشارب الكث المقل من اول الطريق : انه يتوقف وكأنه يبحث عن شيء ويختلس النظر الى ناحية ..

ما عاد يحتمل هذا كله : واحس بوطأة هذه المراقبة التي لا نهاية لها فوق انفاسه .. انه يتخفق في هذه المدينة الكبيرة ، القاهرة الصاخبة ، سجنه الكبير الذي لا فكك منه ..

وانطلق يعبر الحديقة الصغيرة المهملة وصوت (ركس) كاب مدام استر ينبعث ملحاً من خلف الباب المغلق هناك في نهاية الحديقة ، وهضى متثاقلاً وكان بجذاته الضخم اثقالاً من حديد ..

وامتدت يده الى الباب بطرقه في استرخاء ، وكان عجباً ان يحس يده ثقيلة حتى ليرفها في صعوبة وعسر : وجابه عند الباب وجهاً باسماً ، واشاح بوجهه دون ان يلقي بتحيته التقليدية لمدام استر . واخذت قطرات العرق تنمقد فوق جبينه . كان يشعر بالذلة يصحبها مزيج من الضيق والضحك ، وكان

هذا الاحساس ملاً نفسه كلما رأى مدام استر بعد حادثة الليلة المتيدة .. ما كان يستطيع ان ينسى انه حيناً يحتل الى نفسه تتوالت امام عينيه صورة ساقيا العاجيتين وهي ترفع عنها الثوب الرقيق وقد وضعت احدهما على الاخرى .. وما كان يستطيع ان يتجاهل هذه الرغبة الخبيثة التي جالت في نفسه حيناً ضمها الى صدره في قلبته التبيمة لها .. كان دائماً يستشعر لهيب شفتيها

الفاثنتين فوق شفتيه الباردتين تحرقان في كيانه علمه وفلسفته ، وتذيان في داخله معاني الطهر والعفة .. وتثور (بيئته) ..

ولكنه كان يحس دائماً ضعفاً ألياً كلما رآها امامه تجابه عيناها الجريئتان وجهه المضطرم الحائر ، كان يشعر بالحجل يتمشى في عروقه وينترع ثقته في نفسه واعترازه برجولته ..

وولج الحجر في سكون ومرارة للتوالت امام عينيه هذه الكتب المنتثرة في كل مكان ، فوق المكتب وعلى الارض ، وهناك فوق هذه الرفوف المثقلة ، واغلاق الباب خلفه في سكون ..

كان ذلك الضيق الذي يملأ نفسه يخفق في انفاسه انتظامها ورباتها ، وكانت صورة (بيئته) الشاحبة تملأ خياله الكليل ، وأحس ان برأسه عرقاً يفيض بقوة ، وامتدت اصابعه الطويلة المروقة تضغط ، تضغط هناك أعلى

اذنه اليمنى ..

ووب فجأة هيب اندلع بين قدميه ، واستشعر خوفاً جارفاً يستحوذ على قلبه ، كانت هناك حشرة ضئيلة تسمى بين قدميه ، صرصار من تلك الصراير التي تملأ منزل مدام استر ، وظل يرقبه ذاهلاً الى ان توارى اسفل الباب ..

انه يخاف هذا الصرصار ، يخشى فيه هذه القوة المجهولة التي تسيره ، لقد قرأ شيئاً كهذا في كتاب من الكتب التي تتحدث عن النفس الانسانية وتقرأ الرفوف في حجرته البائسة ..

ان هذه السلبية التي تأخذ عليه حياته يجب ان يضع لها حداً ، وليبدأ بهذا الحرف الجبان يزيحه عن كاهله ، ان علاجه في واحد من هذه الكتب .

واسرع يبحث عن الكتب هنا وهنا .. انه لا يذكر عنوانه تماماً ولكنه يذكر لون غلافه . واشتدت حركة يديه وهو ييمثر الكتب ويخرجها من اماكنها ، واشتد وجب قلبه وابتدأت حبات العرق تحمل لعينيه لدعاً مؤلماً ،

وأحس ان ذلك العرق الذي ينضب في رأسه قد زادت حركته ، وما زالت الكتب تتناثر حوله من فوق الرفوف ومن على المكتب ومن كل مكان .. وأخذ يلهث في عنف وملأت مرارة جارفة قلبه كله ..

لماذا بالله كل هذا العناء ؟ ماذا افاد ؟ لا الناس عرفوه ، ولا بيئته تبادلته نظراته الملتببة ببسمة حانية ، ولا مدام استر كفت عن نظرتها الساخرة المشفقة التي توجهها اليه ..

وارتفع صوت بائع الخيار تحت شرفته ، ومضت عربة تحدث دويماً مشروخاً وذلك الصوت الذي يعطل خطوة خطوة ..

انا الغفير .. وبيئته تسير مع هذا الشاب الاسمر .. وهو ماذا ؟ يقرأ هذه الكتب كلها ، واكثر منها .. نعم اكثر منها .. اكثر منها .. منها .. وهب من وقفته وقد اخذ يجمع كل ما فوق الارض من كتب وفي عينيه لهيب مستعر ..

★

وهرعت مدام استر الى السطح وقد هالها الدخان الذي ملأ جو المنزل وايقظها الصراخ المتعالي في الطريق .. وكان عدنان يضحك بوحشية ضحكاً ما استمتع بمثله طول عمره ، ويده تحمل الى النار وقودها .. نثار الاذهان الجبارة ، اذهان الفلاسفة

القاهرة فاروق خورشيد

من الجمعية الادبية المصرية